الحلقات المفقودة

ملخصة من مقالة للعلامة لانج الانكليزي بقلم جناب شكري افندي سيرو

مسألة اصل الانسان من اهم المسائل التي بحث فيها العلماء ولم يزالوا يبحثون لا لفائدتها العلميَّة بل لعلاقتها باعظم اركان الفلسفة والدين. فقد اوضح علماء الطبيعة كيفيَّة تكوُّن الجماد والنبات والحيوان الاعجم واشتقاق بعضه من بعض واما الانسان فلم يجمعوا على انهُ مشتق من الحيوان الاعجم لان الحلقات التي تصل بينهُ وبين الحيوان لم توجد حتَّى الآن ولا اجمع العلماء على ان الزمان الذي مرَّ على الانسان منذ وجوده على هذه البسيطة كافٍ لتكوُّنهِ على صورتهِ الحاليَّة بفعل النشوء الطبيعي

وقد كان الناس يرون حوادث الكون ويعجزون عن معرفة عللها الثانويَّة فيردونها الى علَّة العلل رأسًا او الى علَّة وهميَّة يجرِّدونها ممَّا يقع تحت نظرهم واختبارهم فاذا رأى الوحشي وميض البرق وسمع هزيم الرعد رأى في الرعد مشابهةً لزمجرة وحش مفترس او صعقات عدو مقاتل وفي البرق مشابهةً لانقضاض سهامهِ فتخيَّل ان في السحاب رجلاً شديد الغضب قادرًا على الايقاع بهِ ولا لوم عليهِ في ذلك لانهُ استنتج ما استنتج من معلوماتهِ. وكذا الكهنة والفلكيون الاوَّلون رأوا حركة الشمس والسيَّارات فاستنتجوا ان فيها حياةً لما رأوهُ من العلاقة الدائمة بين الحياة والحركة

ولما اكتشف الفيلسوف اسحق نيوتن ناموس الجاذبيَّة وبيَّن انهُ عامٌّ شامل لحركات الاجرام السماويَّة علمَ الناس ان في الكون نواميس طبيعيَّة تخضع لها الموجودات مهما بعدت مسافاتها واتَّسع نطاقها. ثم ظهر كتاب لَيَل الجيولوجي الشهير مثبتًا ان النواميس الطبيعية تفعل بالموجودات على نمط واحد مهما بعُدت ازمانها. والآن لا يشكُّ عاقل في ان الارض قد وصلت الى حالتها الحاضرة بواسطة افعال طبيعيَّة حدثت فيها جريًا على نواميس طبيعيَّة مقرَّرة. ثم تقدَّم علم الكيمياء واثبت ان نواميس الكون واحدة وهي تفعل في الاجسام الصغيرة والكبيرة على حدٍّ سوى واستعان بالسبكترسكوب وبيَّن ان مادَّة الكون واحدة من اكبر الاجرام السماويَّة وابعدها الى اصغر الذرات واقربها. ثم ثبت ان المادَّة لا تتلاشى مهما تغيَّرت اشكالها والقوة لا تزول كيفما استحالت

والآن لا ترى احدًا ممَّن استنار وا بنور العلم يحسب ان البرق صوت الهٍ قائم في

السحاب او ان الشمس تسير في مركبة يسوقها احد الآلهة او ان لكل نبتة الهًا يعتني بها بل تراهم يبحثون عن مصدر المادّة والقوّة وكيفيّة وجود النواميس الطبيعيّة الجارية على هذا الكون . اي انهم استعاضوا عن معجزات القدماء بنواميس الطبيعة .

الّا ان الذين سلّموا بان حوادث الكون من مثل البرق والرعد والمطر تجري بموجب النواميس الطبيعيّة لم يسلّموا كلهم ان انواع النبات والحيوان تجري بموجب النواميس الطبيعيّة ايضًا فقالوا ان كل نوع منها تكوّن بمعجزة الهيّة مباشرة . والبعض سلموا بان انواع النبات والحيوان وُجدت بمقتضى النواميس الطبيعيّة ولكنهم استثنوا الانسان منها وقالوا انما هو ابن الامس وقد وُجد على هذه البسيطة دفعةً واحدة منذ سنة او سبعة آلاف سنة لاغير

وفيما علماء الجيولوجيا والعاديّات يبحثون في طبقات الارض وكهوفها وجدوا فيها كثيرًا من آثار الانسان ومعها آثار حيوانات انقرضت عن وجه الارض منذ قرون كثيرة فثبت ان الانسان قديم على هذه البسيطة . ثم ظهر كتاب داروِن في اصل الانواع فذاع مذهب النشوء وصار هذا الكتاب محورًا تدور عليهِ مباحث العلماء وجعلت ادلة النشوء تزيد عددًا ووضوحًا الى ان صار هذا المذهب قاعدة العلوم واساسها وعُمّم على جميع الموجودات الآليّة وغير الآليّة الّا الانسان فانهُ بقي نازلاً منزلة لايتناولها العلم الطبيعي

ثم ثبت بادلة كثيرة انهُ مرّ على الانسان ادوار كثيرة كان فيها متوحشًا كمتوحشي العصر الحاضر وانهُ جاهد في سبيل الارتقاء ازمانًا مديدة . وان الارض كانت مقسومة منذ عهد قديم الى اقسام كثيرة بحسب ما فيها من النبات والحيوان الخاص بها وان ذلك دام الوفًا بل ملايين من السنين ثم تكاثرت الانواع رويدًا رويدًا الى ان بلغت الحد الذي نراها فيهِ وهي متدرجة في الخلق والكمال

وقد بيّن داروِن الاسباب الطبيعيّة التي نتج منها ما نراهُ من التباين في انواع الحيوان . واستدلّ منها على ان الانواع الكثيرة التي نراها الآن هي مشتقة كلها من اصل واحد او من بضعة اصول لاسباب طبيعيّة جارية على نواميس طبيعيّة . وكان اول اعتراض اعتُرض بهِ على مذهب النشوء انهُ اذا كانت الانواع مشتقة بعضها من بعض وجب ان تكون كلها في سلسلة متقاربة بحيث لا يوجد نوعان بعيدان الّا وتوجد الحلقات الموصلة بينهما واذا كانت هذه الحلقات الموصلة مفقودة الآن فعلى علم الجيولوجيا ان يكشف لنا آثارها في طبقات الارض . وهو اعتراض قويّ لاتنكر صحتهُ ولم يكد يشيع حتّى اخذ علماء الجيولوجيا يبحثون

وجود هذه الحلقات بمكتشفاتهم وقد قال الاستاذ كوب وهو من اكبر الثقات في هذا البحث اننا قد عرفنا الآن اسلاف الحيوانات الفقرية المنقرضة فعرفنا اسلاف جميع الزحافات والطيور وذوات الثدي . وعرفنا نسب الغزال والجمل والفرس والكركدن والقط والكلب . وقال المسيو جودري ان آباءنا رأوا عشرة انواع بل مئة نوع مختلف حيث لا نرى نحن الاَّ نوعًا واحدًا . ورأوا مخلوقات وجدت في الارض عرَضًا او بلا ناموس ولا ارتباط حيث نرى نحن اشكالاً قليلة العدد كثيرة التشابه ويمكن ردها الى اشكال اقل عددًا وابسط تركيبًا ونرجو اننا سنصل يومًا ما الى معرفة المنهاج الذي جرى عليهِ الباري سبحانهُ في ايجاد الحياة والاحياء

ولما كانت مسألة هذه الحلقات المفقودة تهمُّ كل مَن يريد الوقوف على ما وصل اليهِ العلماء في عصرنا هذا رأينا ان نبسط الكلام عليها فنقول

انهُ منذ خمسين عامًا قال الدكتور واتس "دع الكلاب تنبح وتعقر لان ذلك خلقي فيها ودع الاسود تزمجر وتنترس لان الله خلقها كذلك" فلم يسع العلماء حينئذٍ ان يناقضوهُ اذ لم يكن لديهم ما ينقض قولهُ . اما الآن فيقولون ان هذه الحيوانات لم تكن كذلك دائمًا بل تبتدئ كلها بنطفة صغيرة او بكُرَيَّة ميكروسكوبيَّة لا تميز بينها وبين الكريات التي تتكوَّن منها الحيوانات الدنيئة والنباتات . ولكن قد رَسَمَ عليها النشوء ان تنمو وتمرَّ على اطوار الاسماك والزحافات وذوات الثدي . والكلب والدب وهما حيوانان مختلفان ونوعان منفصلان يمكن تتبعهما الى حيوان واحد من ذوات الكيس من حيوانات الدور الثاني من الادوار الجيولوجيَّة . والفرس ذو الحافر يمكن تتبع اصلهِ الآن الى حيوان صغير القدِّ لهُ خمس اصابع في كل قائمة من قوائمهِ وهو بعيد عن الفرس الحالي خَلْقًا وخُلُقًا بَعْد الكلب عن الاسد بل بَعْد الثعلب عن الثور . ثم عُلم امران مهمان الاول ان الحجم لا اهميَّة لهُ في تتبع انساب الحيوانات كما ترى في اختلاف حجم الكلاب من الكلب الصغير الذي تضعهُ في جيبك لصغرهِ الى الكبير الذي يماثل الثور قدًّا وكلٌّ منهما بالغ اشدَّهُ من النمو . والثاني ان حيوانات كثيرة قد انقرضت من الارض لغير داعٍ ظاهر كما انقرض الفرس من اميركا بعد ان كان كثيرًا فيها وهو قادر على احتمال حر خط الاستواء وبرد الاصقاع الشماليَّة . وانقراضهُ من الحوادث الغريبة التي لم يكشف العلم سببها حتَّى الآن

ولا نعلم حتَّى الآن كيف وُجدت المخلوقات الحيَّة على وجه البسيطة ولا كيف كثرت انواعها واختلفت وانما نعلم ان النواميس الطبيعيَّة التي يستدعيها مذهب النشوء تؤثر في

تغيير الحيوانات وتوليد الانواع بعضها من بعض على اسلوب معقول محكم اتمّ الاحكام كما يظهر من تتبع ارتقاء الفرس الشبيه بترقي المصور في صناعة التصوير. فان صور المصوّر الاولى تكون بسيطة عمومية حتّى اذا صوّر صورة رجل لم يكن فيها من شكل الرجل الاّ بعدها عن صور الجماد او الحيوان. ثم تزيد الصور اتقانًا الى ان يرى فيها شكل طائفة مخصوصة من الناس ولا تزال تزيد اتقانًا حتّى تدل على شخص معيّن. وكذلك اشكال الحيوانات الاولى التي تولد الفرس منها كانت بسيطة وكانت الخطوة الاولى نحو تخصيص اشكالها بالفرس أنّ نوعًا منها مشى على اصابع قوائمه بدلاً من المشي على اخمصها. ثم جعلت اصابعه تزول واحدة بعد أخرى لان العدو في الاراضي الصخرية على اصبع واحدة قويّة لها ظفر متين يحميها اسهل من العدو على خمس اصابع ضعيفة فبقيت احدى اصابع الفرس وغلظ ظفرها فصار حافرًا وتغير تركيب مفاصلها حتّى صارت بأمس من الخلع وصار الفرس في الشكل الذي نراهُ فيهِ الآن وقد اقتضى ذلك قرونًا عديدة نعد بالالوف والربوات وقس على ذلك تولّد الدب والكلب والقط وما اشبه

ولم يكتفِ علم الجيولوجيا والبليونتولوجيًا باكتشاف الحلقات التي تربط الانواع بعضها ببعض بل قد كشف بعض الحلقات التي تربط الاجناس بعضها ببعض مثال ذلك ان البون بين الزحافات والطيور شاسع جدًا حتّى لم يجسر احد من العلماء المحدثين ان يدعي بوجود الاتصال بينها الاّ منذ سنين قليلة. اما الآن فقد ثبتت القرابة بين الزحافات والطيور وعلم ان الزحافات صارت طيورًا وتدرّجت الى ذلك تدريجًا حتّى لا يمكننا الآن ان نفصل فصلاً تامًا بينها فقد وجدت زحافات ذوات ريش ووجدت طيور رؤوسها واسنانها مثل رؤوس الزحافات واسنانها وبنانها المتحجرة محفوظة جيدًا الى يومنا هذا حتّى ان منها ما يعسر الحكم في انهُ من الطيور او من الزحافات. وقد كُشفت احافير أخرى من قبيل ذلك رَبَطَت كثيرًا من الانواع والاجناس الموجودة الآن بعضها ببعض حتّى لم تبقَ شبهة في ان النشوء هو الناموس العام الشامل للعالم الحيوي. فهل الانسان مستثنى منهُ وجوابًا لذلك نقول

ان الانسان في عرف علماء الجيولوجيا حيوان مشابه لذوات الايدي الاربع كالشمبانزي والغورلاّ والاورنغ فان اعضاءها كلها مشابهة لاعضائهِ وليس فيهِ عظم ولا عصب ولا عضلة الاّ وفيها مثلها بل هي مشابهة لهُ في بعض الامور العرضيّة كاتجاه شعر الساعد. والمشابهة العظمى بينها وبينهُ في المخ الذي هو اهم اعضاء الانسان فانهُ قد بلغ فيها درجة عالية من

الارتقاء حتّى ان دماغ بعض الفرود متوسط بين دماغ اوطإ شعوب الناس ودماغ اوطإ انواع ذوات الايدي الاربع . ودماغ البله من الناس اقرب الى دماغ الفرود منهُ الى دماغ البشر . وقد حاول بعضهم ان يجد فرقًا ثابتًا بين دماغ الانسان ودماغ غيرهِ من ذوات الايدي الاربع ونشأ عن ذلك مناظرة شهيرة بين العلّامة أوِن والعلّامة هكسلي وكان اوِن من اكبر اضداد مذهب النشوء واعلمهم واشهر علماء التشريح فدارت الدائرة عليهِ واقرّ بخطاهِ مذعنًا للحق ثم بيّن هكسلي ان تسمية هذه الحيوانات بذوات الايدي الاربع خطأٌ لان قوائمها الخلفيّة ارجل حقيقيّة لا ايدٍ ولو شابهت الايدي في شكلها الظاهر . ومع شدّة المشابهة بين الانسان وهذه الحيوانات جسمانيًّا فبين الانسان وبينها فرق كبير ثابت كما قال هكسلي نفسهُ وهو يمنع ان الانسان متولّد منها او انها متولدة من الانسان . وهذا الفرق طبيعي وعقلي اما الفرق الطبيعي فهو في كون الانسان وُجد ليمشي منتصبًا وكل اعضاء بدنهِ مرتبطة بذلك ارتباطًا غير منفكّ فترى دلائلهُ في قدمهِ في العقب والاصابع والاخمص وعظام ساقيهِ وعضلاتها وحقويهِ وعمودهِ الفقري واتجاه امعائهِ واستناد رأسهِ الى عمودهِ الفقري . وانتصاب قامتهِ جعلهُ يستعمل يديهِ فصارت اليد من ادق الآلات الطبيعيّة واستغنى بها عن استعمال فكيهِ للقبض على الطعام وللهجوم والدفاع فقلّ بروز فمهِ وصغرت انيابهُ وكاد بعض اسنانهِ يزول تمامًا لقلة استعمالهِ لهُ

وهذا الفرق الجسماني بين الانسان وبقيّة انواع الحيوان عرضيٌّ لا جوهريٌّ وهو كالفرق بين الآلة البخاريّة الحديثة المستوفية شروط الاتقان والآلة البخاريّة القديمة فان الاجزاء الجوهريّة الموجودة في الواحدة موجودة في الاخرى ايضًا . غير ان اجزاء الآلة الحديثة اكثر اتقانًا واشدُّ احكامًا من اجزاء الآلة الاولى . واما الفرق الكبير فهو الفرق العقلي والادبي . نعم ان اكثر القوى العقليّة والاديبيّة لها بعض الوجود في العجماوات كالذاكرة والمحبة والامانة وذلك شائع في الفرود والكلاب والافيال وانواع أُخرى من الحيوان . على ان بعض قبائل البشر المنحطة ليس لها من هذه الصفات الاّ القليل فالشمبانزي الموجود الآن في بستان الحيوانات بلندن يعدُّ من الواحد الى الخمسة وبعض المتوحشين لا يعدُّون الاّ الى الثلاثة . والغورلاّ يسكن في غياضهِ مع زوجتهِ واولادهِ ويحنُّ اليها والبهنّ اكثر من كثيرين من الازواج . ومع ذلك فالفرق شاسع بين الانسان وهذه العجماوات لان القوى العقليّة والاديبيّة لا ترتقي فيهم ويظهر انها غير قابلة للارتقاء وهي ترتقي في الناس الى ما شاء الله مهما كانوا منحطين . ولا يعرف من الناس من لا قدرة لهُ على النطق او لا معرفة

له بعمل الادوات واستخدام المواد والقوات الطبيعية لاغراضه. اما من جهة النطق فلبعض العجماوات اصوات تعبر بها عن انفعالاتها النفسية ولكنها لم تتصل الى ربط هذه الاصوات على صورة تعبر بها عمّا يجالج نفوسها ولم تتعلم ذلك من الانسان مع ان بعضها قد تعلم منه دلالة بعض الالفاظ فصار يفهم المراد بها اذا سمعها . واما من جهة عمل الادوات فما من قبيلة من قبائل الناس الاّ وهي تستخدم آلات مختلفة للهجوم والدفاع ولبعض الاعمال واما ارقى انواع القرود فلم يتجاوز حد استعمال الاشياء الطبيعية لاغراض محدودة فيجلس بجانب النار يصطلي ولكنه لا يعرف ان يضرمها ولا ان يزيدها حطبًا لكي لا تنطفئ . وفي بستان الحيوانات بلندن قردان يأخذان مفتاح قفصها من الخادم ويفتحان الباب ويخرجان منه ولكن لم يعلم ان قردًا من القرود صنع مفتاحًا مهما كان نوعه . وغاية ما تعمله القرود انها تستعمل اغصان الاشجار والحجارة ترمي بها الاعداء وتكسر بها الجوز . وكل ما وصل اليه القرد من الاستنباط هو انه يبني لنفسه كوخًا صغيرًا من اغصان الاشجار ولكن الطيور وبعض الحشرات تفوقه في ذلك وتفوق بعض طوائف الناس ايضًا

والفرق المذكور ههنا اساسيٌّ جوهريٌّ لانه يمكننا ان نتتبع ترقي الانسان المستمر من حينما كان يكتفي بقطع الحجارة وعمل الادوات منها الى ان اتصل الى عمل الآلة البخارية والتلغراف الكهربائي ولكننا لم نرَ في القرد ادنى دليل على انه قابل للارتقاء . وجملة القول ان ارتقاء هذه الحيوانات قد بلغ حدّهُ ووقف عندهُ

والفرق بين صغار القرد المعروف بالشمبنزي واطفال الزنوج قليل لان شكل الجمجمة واتساعها وتلافيف الدماغ والصفات العقلية والادبية متشابهة كثيرًا ولكنّ دماغ الطفل ينمو وادراكه يزيد بتقدمه في السن الى ان يبلغ اشدّهُ واما دماغ القرد فيقف عن النمو ويزداد نمو عظامه ويبرز فكه وتزيد فيه الهيئة والاخلاق الوحشية

ويظهر مما تقدّم ان الانسان والقرد يختلفان في جهتين مختلفتين ولا يمكن ان يتحوّل احدهما الى الآخر وانه اذا اريد البحث عن الحلقات المفقودة التي تربط الانسان بالمملكة الحيوانية وجب البحث عنها على طرق أُخرى وهي اوّلاً مقابلة ارقى طوائف الناس بادناها لنعلم ما اذا كان الانسان مرتقيًا من اقوام آخرين ادنى من الاقوام الموجودين الآن . وثانيًا النظر في احوال المولودين بلهًا . وثالثًا البحث في بقايا الازمنة الغابرة . فاذا قابلنا الانسان المتمدن بالمتوحش رأينا دماغ المتوحش اصغر جرمًا من دماغ المتمدن وتلافيفه اقل وضوحًا وعظام جمجمته ووجهه وفكيه اكبر واقوى ورجليه اقصر وانحف وذراعيه اطول وقامته

اقصر . واقدم المتوحشين المعروفين الآن القزم سكّان اواسط افريقية و بعض جهات الهند واميركا فان متوسط قامتهم قد لا يزيد على اربع اقدام انكليزيّة بل منهم من قامته لا تزيد على ثلاث اقدام . ولا شبهة في ان هيئتهم تقرب من هيئة القرود . واما البله فالمشابهة بينهم وبين العجاوات عظيمة حتّى قال العالم فوغت اننا اذا وضعنا رأس الابله بين رأس الزنجي ورأس الشمبنزي رأينا ان رأس الابله متوسط بين الرأسين من كل وجه . ثم ان متوسط دماغ الاوربي ٤٩ اوقية . ومتوسط دماغ الزنجي ٤٤ اوقية وربع ومتوسط دماغ بعض القبائل الدنيا ٣٥ اوقية وهذا يقارب الحدّ الذي وضعه جراتيوليه وبروكا لاقل ثقل يبتدئ عنده وجود العقل الانساني وهو ٣٢ اوقية . ولكنّ من البله من لا يزيد ثقل دماغه عن عشر اواقٍ . ومتوسط دماغ القرود الكبيرة نحو عشرين اوقية بل اثقل من ذلك في بعض الاحوال ومن ثمّ ترى ان دماغ القبائل الدنيا متوسط بين دماغ ارقى الناس ودماغ ارقى انواع القرود . والفرق بين ارقى انواع القرود وادناها اعظم من الفرق بينها وبين الانسان

ومما لا مرية فيه انه لم توجد بين الاحافير الحيوانيّة آثارٌ نسبتها الى الانسان نسبة آثار الفرس اليه . واقدم الجماجم التي وجدت لهذا العهد ليست بادنى من جماجم المتوحشين في عصرنا الاّ ان بعضهم اكتشف فك انسان في بلاد البلجيك تنقصه الحدبة اللسانيّة وهي نتو عظمي صغير يرتبط به عضل اللسان و يقال انه ضروري للنطق وهو غير موجود في جماجم القرود وجميع العجاوات فادّعى بعضهم ان الناس الذين هذا الفك من آثارهم لم يكونوا يستطيعون النطق . ولا يمكن اثبات ذلك ما لم تُكتشف جماجم كثيرة من هذا النوع . وغاية الامر ان العلماء بحثوا كثيرًا ليجدوا الحلقات التي تربط الانسان بغيره من انواع الحيوان فلم يجدوا شيئًا منها حتّى الآن مع انهم وجدوا حلقات كثيرة تربط غيرهُ من الحيوانات المعروفة بحيوانات أُخرى

ومعلوم ان الانسان كان مفرقًا على وجه البسيطة في الدور الرباعي فاذا كان قد وُجد بالنشوء كبقيّة انواع الحيوان وجب ان يُبحث عن اصله في الدور الثلاثي بل في النصف الاول منه . ويبعد عن الظن ان يوجَد شيء من آثاره حينئذٍ لكثرة ما طرأ على الارض من التغير في اواخر الدور الثلاثي واوائل الرباعي ومن المحتمل ان المكان الذي نشأ فيه الانسان اولاً مغمور الآن بالاوقيانوس او ان الانسان خُلق بطريق الاعجوبة ولم يجرِ عليه ناموس النشوء . هذه خلاصة بحث علماء الطبيعة في هذا الموضوع